عنوان المقال: صورة مدينة الجزائر العاصمة في عيون الرحالة الألمان هابنسترايت أنموذجا

الاسم واللقب: مفيدة ميزان طالبة دكتوراه
اسم ولقب المشرف: حورية رواق الرتبة: أستاذة التعليم العالي
مخبر: تحليل الخطاب والترجمة
جامعة عباس لغرور خنشلة

ملخص

أخذ أدب الرحلة مؤخرا حيزا واسعا من الأهمية وذلك لما يرصده الرحالة عن الشعوب وخلفياتها مستندا في ذلك إلى مرجعيات ومقومات عديدة مختلفة، ويسمى هذا التخصص علم الصورولوجيا؛ ومما لاشك فيه أن صورة المجتمع الجزائري بما عليها الآن قد شكلت ملامحها تدريجيا عبر العصور، جاء هذا المقال الموسوم بصورة مدينة الجزائر العاصمة في كتابات الرحالة الألماني هابنسترايت الذي سلط الضوء على بعض مظاهر المجتمع الجزائري، ولعل الإشكال الذي يطرح نفسه: ما هي المرجعيات التي تبناها الرحالة في تجسيد صورة الآخر الجزائري؟ وما مدى مطابقتها لواقع المجتمع الجزائري؟

الكلمات المفتاحية: الصوراتية؛ الرحلة؛ الآخر الجزائري؛ المرجعيات؛ الرحالة.

Abstract

The literature of the journey takes an important place, for what it is Observed by the travelers of people and their back ground, based on various references and elements. This specialty called*imago logy* Certainly, the Algerian society image has been shaped gradually by ages. This article that tagged by the picture of Algiers in the writings of German traveler Happen street, which hi ghlighted some aspects of Algerian society .Perhaps the question here is: what are the references adopted by him in portraying the image of the other Algerian? and How closely does it correspond to the reality of Algerian society?

Key words: imago logy the journey؛ other Algerian؛ the references؛

أولا- مقدمة

يعد أدب الرحلة لونا من الأجناس الأدبية التي تشكل أهم روافد الآداب العالمية والدراسات المقارنة نظرا لتلك المشاهد والصور التي يعكف الرحالة على نقلها من خلال رحلاتهم التي تضمر بين ثناياها الكثير من الأبعاد والأهداف انطلاقا من مرجعيات ثقافية وإيديولوجية للانا، حيث كان للنص الرحلي عيونا مفتوحة على مختلف مظاهر الحياة الثقافية والاجتماعية والدينية وكل ما يساهم في تشكيل خصوصيته، فقد شهد الشرق (المشرق، والمغرب)باعتباره آخر نقيضا للغرب على مر القرون توافد الكثير من الرحالة الأوروبيين الذين حظيت نصوصهم الرحلية بشهرة واسعة، ولقد كانت الجزائر طيلة القرون الماضية مقصد العديد من الرحالة خصوصا الألمان الذين أصدروا رسائل ومذكرات تحدثوا فيها عن رحلاتهم إلى الجزائر وعلاقاتهم بأهلها، وعبروا عن قضاياها الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية، ووصفوا طبيعتها ومدنها، كما تطرقوا لعادات شعبها، وقدموا صورا متباينة في قيمتها التاريخية والعلمية فـ "عدت مؤلفاتهم مصادر أولية ليس هناك من الباحثين المنصفين أن ينكر أهميتها، ودورها الحيوي الأساسي أحيانا والتكميلي أحيانا أخرى في بناء الواقعة التاريخية"[1] فقد اكتفى بعضهم بتقديم صورة وصفية، بينما عمد البعض الآخر إلى تقديم ما فيها من ماضي تاريخي، لأن أغلب الرحالة الألمان "لم يضعوا كتبهم عن الجزائر حبا بها، ودفاعا عن حقوقها، وإنما وضعوا أكثرها ولاسيما في الفترة الأولى لتكون دليلا لمن أراد من مواطنيهم الهجرة إلى الجزائر[2] ومن الغربيين الذين كان لهم باع طويل في مجال الرحلة إلى الجزائر في فترة الحكم العثماني الرحالة الألماني هابسترايت"[3]

ثانيا- أهمية أدب الرحلة في تمثيل صورة الأخر

يرتبط أدب الرحلات بظاهرة الترحال والتنقل، وتبرز أهميته في التفاعل بين ما يراه الرحالة وما ينسجه خيال القارئ.، ومحور هذا الفن شخصية المؤلف وآنيته، ووصفه لما يعرض له في سفره، وذكر الأحاسيس التي يشعر بها أمام المناظر التي يمر بها، وأحوال البلاد التي يزورها...، وهو في كل هذا يعبر عن نفسه وعن عواطفه، وعن وجهة نظره في كل مسألة"،[4] ولأن الرحلة رؤية شاملة لمختلف القضايا التي يتناولها الرحالة من خلال زيارته لبلد ما؛ تكون الرحلات بذلك أهم منابع استلهام الصورة فلا تخلو رحلة من تصور حول ماهية الآخر إذ أن "للمهاجرين والرحالة من الكتاب فضل كبير في تكوين هذه الأفكار. فهم الذين ينقلون إلى أممهم، ويصفون في أدبهم صور ما شاهدوا في البلاد الأخرى"[5]

من هنا تشكل الصوراتية حقلا من حقول الأدب المقارن وهو علم دراسة الصورة الأدبية imagologie فلا يخلو بحث مقارن من دراسة لصورة الآخر في مختلف الآداب القومية وحسب ماجدة حمود هي "تعبير أدبي مستمد من نظامين ثقافيين ينتميان إلى مكانين مختلفين أي المكان الذي نشأت فيه الصورة، أي بلد الناظر، والمكان الذي تقدمه الصورة أي البلد المنظور إليه"[6] يتبن لنا من خلال هذا المفهوم أن انتقال الرحالة إلى البلدان الأخرى مكنهم من بيان رؤاهم ومشاهداتهم وموقفهم من البلاد التي زاروها، ومن هنا أصبحت الحاجة ملحة إلى تقصي صورة الأنا لدى الآخر.

ولهذا يوضح "سيمون جون" Simon jeune علاقة صور الشعوب بالأدب المقارن حيث يقول "إن التأثير الذي سنتحدث عنه مختلف لأنه ليس من نفس النوع، فلم يعد ثمة عمل أدبي يحدث تأثيرا بل شعب بأكمله، البلد كله يحدث التأثير، وأدباء شعب آخر يتلقون الصورة"[7] فالبحث عن الآخر والكشف عن صورته أو محاولة التعرف إلى ثقافته وفكره هي فكرة تمس الإنسان من الداخل، وأدب الرحلة يعد من الآثار الأدبية الغنية بمادتها التي أسهمت في الوصول إلى مدارك الآخر واستقراء مدى القدرة على التواصل بين الذات الباحثة والآخر القابعة في مضان الغموض، وقد شكلت الرحلات البوابة التي انطلقت منها كثير من الرؤى والأحكام والتصورات عن الآخر، فالغاية ليست وصف الأخر والوقوف على معالم حياته، بل قراءة الآخر في مرآة الأنا،لأن "دراسة صورة شعب ما في أدب شعب آخر، إنما تدل على وعي للذات والعالم، كما تسهم في تعزيز التفاهم بين الشعوب"[8] فالعلاقة بين الأنا والآخر هي علاقة تبادل الأدوار خلال فترات زمنية تارة غالبا وتارة مغلوبا.

فأدب الرحلة له دور مهم في رسم ملامح صورة الآخر، وإن كانت تلك الصورة غير تامة وغير دقيقة أحيانا، وبما أن الاعتراف بشرعية الاختلاف بين البشر هو أحد روافد تشريع العلاقة مع الآخر على قاعدة التواصل والحوار والتعارف فالرحلات إذن "تساهم في تشكيل صورة الأمة في أدب أمة أخرى، وهي تكشف بذلك عن طبيعة العلاقة التي تسود بين الأمم والشعوب، فلاشك أن حالة العداء تخلق للآخر صورة سلبية تسعى الأمم لتبريرها وجمع مفرداتها من عناصر شتى، وفي هذه الحالة يجري اختزال العدو إلى صورة نمطية يجري التعبير عنها بكثافة ودقة، أما حالة الإعجاب فتثير صورة ايجابية مشرقة"[9] يتبين من خلال هذا المفهوم أن الصورة التي ترسمها الذات عن الآخر قد تسلك أحد الاتجاهين السلبي أو الايجابي حسب الانطباع الذي يتشكل في متخيل الأنا عن الآخر. والفاحص متى نظر في الصورة التي ترسمها الذات للآخر، فإنه يتبين له –أن تلك الصورة مزيج غريب وغير

متجانس من العواطف والأحكام"[10] يتضح مما سبق أن استناد الرحلات إلى كل تفاصيل وحيثيات حياة الآخر يجعلها أكثر الوسائط قدرة على تصوير الآخر.

ثالثا- صورة الآخر الجزائري في رحلة هابنسترايت J.E.Hebenstreit

قام الرحالة الألماني "ج. أو. هابنسترايت" "J.E.Hebenstreit" بزيارة الجزائر وتونس وطرابلس في النصف الأول من القرن 18، وقد جاءت رحلته في شكل رسائل يوجهها إلى الملك البولوني الذي كلفه برئاسة البعثة العلمية إلى شمال إفريقيا بهدف التعرف على نباتات وحيوانات تلك المنطقة والعمل على جمع عينات لفائدة القصر الملكي فنجح إلى حد كبير في القيام بتلك المهمة" إذ استطاع العالم الألماني أن ينال ثقة حكام الجزائر ومساعديهم وبذلك يكون قد وفر لنفسه أجواء ملائمة للحصول على ما يريد في مهمته العلمية الاستكشافية خاصة الجزائر"[11] التي وصل لها يوم 16 فيفري 1732 بأمر من الملك أغسطس الثاني لهدف الحصول على حيوانات ونباتات نادرة بالجزائر، حيث توجه هابنسترايت للقاء الداي **كرد عبدي باشا** الذي وعده بتوفير الحماية بعد أن عرف الغرض من رحلته، ولقد أثنى هابنسترايت J.E.Hebenstreit على سكان مدينة الجزائر سواء كانوا عربا أو أتراكا، لكونهم يحترمون كل من يمتهن الطب أو التداوي بالأعشاب.

ويشير الرحالة في معرض حديثه إلى أصول سكان مملكة الجزائر بأنهم ليسوا من أصول واحدة، فالحكومة بيد الأتراك الخلص، والكراغلة عبيد السلطان حسب العرف العثماني، وهم "جماعة المولدين من أباء أتراك وأمهات جزائريات"[12] لا يستطيعون احتلال المراتب الكبيرة في المملكة.أما الحضر هم السكان الأوائل للمدينة فرض عليهم الأتراك وضعية التبعية المطلقة، وأملاكهم معرضة للمصادرة لأقل خطأ يصدر في حق الأتراك، يشتغلون كعمال وتجار، أما رجال القبائل يستقرون في الريف لمزاولة الزراعة بعيدا عن المدينة، وهناك عرب يقطنون الأطلس، لا يعتبرون من الرعايا الخاضعين إذ يتصدون لجند المحلة"[13] كما أن مدينة الجزائر مأهولة بعدد كبير من اليهود، فهم حسب مترجم الرحلة يشكلون طائفة مهمة لكثرتهم وتحكمهم في النشاط التجاري، "لم تقتصر العائلات اليهودية بالجزائر على التجارة فقط، بل شملت هيمنتهم ميدان السياسة"[14].ويسدد كل واحد منهم ضريبة تقدر بريالين في الشهر.

يقدم الرحالة هنا صورة عامة عن جميع الفئات الساكنة في مملكة الجزائر، ويبين مكانة كل واحدة منها، وأهم الأعمال المتعلقة بكل فئة، لأن سكان المجتمع الجزائري كانوا عبارة عن مجموعة من العرقيات يعيشون منسجمين تحت الحكم التركي فبالرغم من إيمان الجزائريين العميق بدينهم فقد كانوا يحترمون كل من يحمل ديانة أو عقيدة أخرى تختلف

عن دينهم كاليهودية والمسيحية، وهذا ما يدعى بالتسامح الديني، يقول "لوجي دي طاسي" Laugier De Tassy "في الميدان الديني نجد أحسن شيء وأروعه التسامح، وهذا التسامح موجود في الجزائر"[15]

رابعا- صورة الآخر والخصوصية الاجتماعية والثقافية

4-1 العادات والتقاليد

كانت الحياة الاجتماعية لأهل مدينة الجزائر لها طابع خاص بها إبان العهد العثماني، ونستطيع أن نلمس ذلك عن كثب في عادات وتقاليد ونمط العيش؛ فلقد تعرف من خلال رحلته على الكثير من عادات وتقاليد الجزائريين وشكل عنها صورة أثناء اطلاعه على كتابات غالبية الرحالة الأوروبيين والقناصل ورجال الدين، هذه الصورة التي سعى لتصحيحها لما سمحت له الفرصة يقول "لقد سنحت لي الفرصة أثناء رحلتي هذه أن أتعرف على سلوك وعادات هذه البلاد، وهذا ما سوف أعرضه فيما يلي من أجل تصحيح معلومات مارامول ودابير وتاسي فيما كتبوه عن مملكة الجزائر"[16] ولقد عرف هابنسترايت Hebenstreit بمهارته وحنكته في التعامل مع حكام الجزائر في مهمته الاستكشافية التي عبر عنها مترجم الرحلة "سعيدوني" بأنها "أقرب إلى الاتزان وأميل إلى الموضوعية في تقديم صورة صادقة عن الجزائر سياسيا وحضاريا واجتماعيا"[17]

يصور الرحالة الألماني أخلاق الآخر الجزائري بطريقة موضوعية منافيه لتلك الصورة النمطية التي عهد الغرب تصويرها والتي لا تخرج عن دائرة البرابرة المتوحشين الذين لا دين ولا أخلاق لهم في قوله "وهذه البلاد مملكة الجزائر تعرف عادة لدى الكتاب focaliseبـ بربارياً أو البلاد المتوحشة، وحسب دلالة هذه الكلمة فإنها تعني أنها مأهولة بأشخاص متوحشين وشرسين وهذا ما نعتبره منافيا للحقيقة، إذا يجب أن ينصف الأكبر من سكان هذه البلاد، فهم أفراد بعيدون عن التوحش ويقدرون الأجانب ولهم رغبة ملحة في التعاون معهم"[18] يبدو أن احتكاك الرحالة الألماني بالآخر الجزائري قد كشف له صورة مغايرة تنفي صورة التوحش عنه على خلاف ما كان يروج عنه من سمات التخلف والبدائية والوحشية في كتابات بعض الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الجزائر، وساهموا في تكوين صورة الجزائر بالرغم من أن هذه الصورة لم تكن صادقة لأنها اتخذت صيغة استعمارية مشوهة،

فقد استندت المركزية الغربية إلى مجموعة من الرؤى الثقافية التي أدت إلى خلق التمايز بين الغرب والشرق، وعلى الرغم من هذه الصورة الايجابية البعيدة عن التعصب العرقي فإن هذا "الانفتاح الفكري للغرب على الآخر لا يزال هشا وحديث العهد أكثر من

اللزوم، وبالتالي يصعب عليه أن يغذي الأمل بالمستقبل، أقصد الأمل بمستقبل ينظر فيه إلى الآخر وكأنه شخص محترم مثله_في ذلك مثلنا أو كأنه شعب له كافة الحقوق المادية والمعنوية تماما كشعوب الغرب"[19].

يواصل الرحالة نقل الصور التي توحي بشهامة الجزائريين وأخلاقهم الفاضلة النابعة من الدين الإسلامي الذي يدعوا إلى حسن المعاملات بين أبناء المجتمع الواحد وحتى مع الأسرى المسيحيين فعادات " وتقاليد الجزائر تحددها ضوابط الشريعة الإسلامية، ...، وفي هذا الشأن قارنت بين حالة الشقاء التي عليها الجزائريون بمرسيليا مع وضعية الأسرى المسحيين بشمال إفريقيا فالأولون لا يستطيعون إلا بشق الجهد جر أغلالهم الثقيلة، بينما الآخرون وهم الأسرى المسيحيون_في الجزائر يقضون نهارهم أحرارا مقابل دفعهم مبلغا ماليا كل شهر...، وفي هذا الجو يتمتع الكل_في الجزائر بحرية المعتقد"[20] إن المتمعن_في الصورة التي نقلها الرحالة حول الأخر الجزائري سيدرك حتما الفرق الشاسع بين المجتمعين من خلال المعاملات الاجتماعية، وكذا معاملة الأسرى وسماحة الآخر الجزائري وكرمه من خلال تعايشه الديني البعيد عن التعصب. كما رصد الرحالة مظاهر الاحتفال بالعيد حسب عادات وتقاليد الجزائريين فـ "مع نهاية شهر رمضان وحلول عيد الفطر، يأمر الداي بإطلاق المدافع إعلانا عن حلول العيد

وحين نمضي إلى الجانب الآخر للحياة الاجتماعية وهو المرأة حيث وردت_في نص الرحالة صورا عن المرأة الجزائرية نظرا لدور الذي للدور الذي تلعبه_في بناء المجتمع، فهي عنصر لا يمكن الاستغناء عنه "أغلب العادات التي يمارسها الجزائريون تستند_في أساسها إلى قوانين وليس فيها ما يفاجئ الأوروبي كغياب النساء عن الحياة العامة واحتشامهن الشديد، فلا يسرن_في الأزقة بدون حجاب"[21]. تبدوا المرأة الجزائرية_في هذا المقطع من النص الرحلي_في صورة المرأة المتدينة والملتزمة بتعاليم الشريعة الإسلامية الداعية إلى العفة والحياء، فالرحالة يعلم أن المرأة_في المجتمعات الإسلامية تولى عناية خاصة، ومحاطة بمجموعة من القوانين التي تكفل حمايتها وتصون كرامتها، وهذا ما تفقده المرأة_في مجتمعه.

لا يتوقف الرحالة عند هذا الحد وإنما يواصل نقل الصورة التي توحي بسمو أخلاق الأخر الجزائري؛ فالجزائريون "من أتباع الرسول محمد صل الله عليه وسلم الغيورين يستهجنون المتشيعين لعلي، ويقيمون_في الغالب بالحج إلى مكة..، ويمتنع المسلمون الأتقياء عن شرب الخم"[22].وهذا ما يوضح من منظور ايجابي وعي الأنا الأوروبية بالخصوصية الدينية للآخر الجزائري حيث يشير إلى ردة فعل الاستهجان والإنكار على

تصرفات الشيعة، كما يشير إلى التزام المسلم الجزائري التقي وابتعاده عن الخمرة، ولا يكتفي الرحالة بهذا القدر بل يشير كذلك إلى مجموعة من غير الأتقياء الذين لا يمتنعون عن شرب الخمر، فهذه الفئة لا تلتزم بحدود الدين يقول:"فبعد أن يمتنعوا عن شرب الخمر طيلة شهر رمضان يعودون إلى شربها مع حلول عيد الأضحى"،[23] لقد قدم الرحالة صورة صادقة تعكس ظاهرة كانت ولا تزال موجودة في المجتمعات الإسلامية، فمن غير المعقول أن يكون كل أفراد المجتمع أتقياء، فالرحالة لم يقصد تقديم صورة مشوهة أو سلبية عن المجتمع الجزائري المسلم بل نقل الحقيقة كما عاينها.

4-2 طبائع العرب والبربر

وصل هابنسترايت إلى مدينة البليدة التي تقع على بعد 48 كلم عن مدينة الجزائر، نزل عند الحاكم، وتناول هو وأصدقائه الطعام ولاحظ حفاوة الاستقبال وكرم العرب، فهؤلاء وفروا عليهم عناء التفكير في البحث عن الطعام "لم تعد تشغلنا متطلبات الأكل وغيرها من احتياجات السفر، فسكان تلك الجهات من بربر وعرب كانوا يخصوننا بكميات أوفر من الطعام الذي كان يحضر حسب الطريقة المتبعة في تلك البلاد"،[24] فالطعام يرتبط بالعادات والتقاليد، وآداب تقديمه تختلف من شعب إلى آخر، والرحالة يثني على الإنسان الجزائري سواء كان بربريا أو عربيا ورسم له صورة الكريم الذي لا يبخل على ضيفه، فآداب الضيافة من شيمه وأصيلة في طبعه، وهذا ما جعل الرحالة مضطرا لتوزيع بعض الأدوية التي حضرها مسبقا على السكان كرد للجميل وعرفانا بالمعروف.

4-3 صورة الأخر الماكر/ المتمرد

لم يكتف الرحالة الألماني بنقل الصور الايجابية التي تم التطرق إليها ولكنه صور الآخر الجزائري في جوانبه السلبية كذكره لقضية تسديد الجباية للحاكم العثماني التي يظهر فيها الآخر الجزائري متمردا وماكرا حيث يقول الرحالة في هذا الشأن "قد اعتاد هؤلاء العرب الرحل الهروب إلى الصحراء عندما يقترب تسديد الجباية، ولهذا كان داي الجزائر يرسل فرق الجند المعروفة بالمحلة إلى مواطنهم وقت الحصاد ليتمكن من استخلاصها"،[25]

يظهر البدو من الجزائريين من خلال هذا النص الرحلي في صورة المكر والتمرد على السلطان العثماني، حيث نجدهم غير مقتنعين بنظام الجباية الذي كانت تفرضه السلطات العثمانية.

خامسا- صورة الآخر وسحر العمران

5-1 أبنية المدينة ومنازلها

لقد ازدهرت وتطورت الهندسة المعمارية بالعاصمة الجزائرية في العهد العثماني، فهي توصف بكثرة مبانيها وتنوعها حيث تشكل العمران صورة من صور هوية الآخر، فلقد صور الرحالة الأماكن التي قصدها أو مر بها في رحلته إلى الجزائر ة، حيث صور منازل المدينة التي نالت إعجابه فيقول "هي منتظمة وبناؤها جيد بالنسبة لنوعيتها، ويحرص في بنائها على أن يكون كل جزء من المنزل منفصلا عن الأجزاء الأخرى ولا سيما الأجنحة الداخلية حتى تظل النساء في معزل، بحيث لا يمكن أن يراهن أحد...، وتشاهد في المنازل الزهور والنباتات والأثاث الجميل، وطريقة المحافظة عليها تدل على التزام السكان بقواعد النظافة والنظام[26] نلمس من هذه الصورة التي قدمها الرحالة للآخر الجزائري نظرته الموضوعية، ولم يقتصر الرحالة على المدينة فحسب بل نجده يقدم صورة وصفية للمنازل الريفية كونها "مريحة جدا للسكن، وما يزيدها جمالا هو منظر بساتين البرتقال المنتشرة حولها.

فعلى الرغم من نشأته الأوروبية وسط التطور الحضاري، وتوفر كل أسباب المدنية والراحة إلا أنه لا يخفي إعجابه بالنمط المعماري الإسلامي، وأسلوب الجزائريين في العيش، ويعترف بأنهم شعب منظم وملتزم بقواعد النظافة. كما أن فكرة الغيرة على المرأة أدت إلى قلة وجود النوافذ في المنازل من خلال أجنحة معزولة.

2-5 أبراج مدينة الجزائر وصورة الآخر المقاوم/ المتحدي

يشيد الرحالة بقوة مدينة الجزائر التي يعتبرها من أهم وأقوى المدن الإفريقية وهو ما أشار له المؤرخ مولود قاسم يقول "كانت الجزائر في المصاف الأول للدول الكبرى، عزيزة الجانب وأدنى خطوة، لها صداها وأي صدى، وقولها هو القول الفصل[27] كونها واجهت في كل الأوقات جيوش أقوى الدول"[28] وهذا الحكم ناتج على اطلاع الرحالة عن تاريخ الجزائر،التي واجهت دوما جيوش أقوى الدول الطامعة في خيراتها، فموقعها الاستراتيجي في حوض البحر المتوسط.

فلقد بنيت المدينة على منحدر جبلي وهذا ما جعل أزقتها متدرجة يعلو بعضها البعض، وهذا التدرج في أزقتها مع البياض الناصع لمنازلها المطلة على البحر أكسبها منظرا متميزا، " يتكون ميناؤها من قلعة حصينة جدا تعرف ببرج الفنار، توجد أبراج أخرى تدافع عن مدينة الجزائر، مثل برج حصن الإمبراطور وبرجين آخرين على شاطئ البحر، وثلاثة صغيرة مزودة بالمدفعية، ومن جهة البحر يعتبر الميناء آمنا إلى حد ما، أما من جهة البر فتوجد أبراج تدافع عنها هي البرج الجديد وبرج باب عزون وبرج باب الواد ، والمدينة في حد ذاتها محصنة نظرا للأسوار والخنادق التي تحيط بها"[29]

وتحصين المدينة بهذا الشكل راجع لكونها مستهدفة للغزو من طرف الغزاة على مر العصور ولقد اضطر الرحالة إلى وصف استعدادات الحكومة للدفاع عن المدينة، وبسالة الأخر الجزائري من خلال ردة فعله على الحملة التي شنها الأسطول الاسباني على مدينة وهران قائلا: " وقد تبين لنا من تلك الإجراءات أن الجزائريين لا تنقصهم الرغبة في الدفاع وأن لهم من الإمكانيات ما يجعلهم يقاومون مقاومة شديدة، ولذا يجب علينا أن ننصف هذا الشعب وخاصة الحامية التركية، فنعترف بأنهم يستميتون من أجل الدفاع عن أنفسهم ويستبسلون عندي التصدي لأي هجوم يتعرضون له وهذا ما أكسبهم هيبة"[30]

مثل النص الرحلي الآخر الجزائري في صورة المقاوم والنضالي لوصفه بالشجاعة والإقدام إذ لا يتوانى أبدا في الدفاع عن نفسه مهما كانت قوة العدو الذي يغير عليه، كما يشير الرحالة إلى بسالة العثمانيين المتواجدين بالجزائر والذين لا يختلفون كثيرا عن الآخر الجزائري في التصدي لأي هجوم من شأنه أن يلحق الأذى بهم أو بممتلكاتهم.

ومن الصور التي نقلها الرحالة هي الآثار الرومانية، وما خلفته الأحداث التاريخية من آثار وأغلب ملامح هذه الصورة قد رسمها الأوربيون، خاصة الرحالة منهم في رحلاتهم الاستطلاعية إلى مدينة الجزائر أثناء الوجود العثماني فيها يقول "يشهد على تاريخها القديم وجود حنايا مياه رومانية جميلة لا تزال تؤدي الغرض من بنائها حتى اليوم، فعن طريقها ينقل الماء إلى المدينة من الجبل المجاور...، فلولا الحاجة إلى هذه الخدمات التي تقدمها هذه الحنايا لكانت معالمها قد تهدمت وتحولت إلى أنقاض منذ عهد بعيد، لعدم اكتراث السكان بهذه الآثار"[31] ويبدوا أن الرحالة عاب على الجزائري تخريب الآثار وكأنه لا يملك أدنى ذوق للمحافظة على الموروثات الفنية ربما لأنها مثلت في مرحلة ما قوة أجداده الحضارية التي مازال تفوقها في الهندسة المعمارية شاهدا عليها إلى اليوم.

سادسا- صورة الآخر وجاذبية الطبيعة

لم تشكل الجزائر بالنسبة لرحالة هابنسترايت Hebenstreit مجموعة حية من العادات والتقاليد والآثار التاريخية والعلاقات الإنسانية فحسب، بل كانت إلى جانب ذلك كله صور وضاءة مشرقة وطبيعة ضاحكة ساحرة ومناظر خلابة ويتضح ذلك في قول الرحالة "ضواحي مدينة الجزائر ذات تضاريس جبلية ولها مناظر تدخل البهجة والسرور على النفس تتخللها أودية رطبة تتميز بخصوبتها، نشاهد منها الكثير من الحدائق بها أشجار العنب والبرتقال واللوز وغيرها من الأشجار المثمرة والغير المثمرة مثل السرو"[32] وبعد مكوثه عدة أيام بعنابة قرر التوجه إلى قسنطينة لمعاينة الآثار الموجودة بها، وفي طريقه استوقفته المشاهد الطبيعية التي قال عنها بأنها رائعة، ...، فطبيعة الجزائر في كل ولاياتها سحرت

الأخر الغربي فالرحالة هنا يقدم صورة حية راسخة_في الذهن الأوروبي عن الشرق بأكمله_في كونه مصدر السحر والجاذبية والجمال "ليبقى الشرق مجرد فضاء يسقطون عليه الرؤى الرومنطقية"[33]

- خاتمة

لقد أصبحت الصورولوجيا أو الصوراتية imagologie ميدانا خصبا للدراسة المقارنة نظرا لأهمية حمولاتها الثقافية والفكرية والاجتماعية وكذا الدينية، فالصور تقربنا من حقيقة الآخر، وتعمق وعينا بالآخر.، كما أن تعدد وسائل تلقي الصورة بتعدد وسائط الاتصال والتثاقف بين الأنا والآخر كالتجارة، والحروب، والاستشراق، والترجمة، والرحلات التي كانت ذات أهمية بالغة_في نقل صورة الآخر بكل تفاصيلها.

إذا كانت صورة مدينة الجزائر العاصمة عند الرحالة الألماني هابنسترايت Hebenstreit قد سلطت الضوء على بعض مظاهر هذا المجتمع الدينية الاجتماعية الثقافية، فدراستي المتواضعة قد أوصلتني_في ختام هذه الورقة البحثية إلى مجموعة من النتائج.:

شكل هابنسترايت Hebenstreit أثناء اطلاعه على كتابات الرحالة الأوروبيين صورة نمطية تبتعد عن الحقيقة، أدت إلى قولبة الآخر الجزائري_في صور مشوهة، ولما سمحت له الفرصة حاول تعديل هذه الصورة إلى حد كبير، هذا التعديل الذي ينتج دوما عن زيادة التفاعل والتبادل الثقافي.

تمسك المجتمع الجزائري بتعاليم دينه وقيمه الأخلاقية_في مرحلة الحكم العثماني، وظهور الآخر الجزائري_في صورة المتسامح والشهم، المتدين بالإضافة إلى تجذر القيم الإنسانية_في أعماق المجتمع الجزائري واحترام الآخرين والكرم وحسن الضيافة.أما المرأة فقد ظهرت_في صورة العفيفة، والمتدينة والساحرة بأنوثتها سحر الشرق وجاذبيته.

نزوع الرحالة كباقي الأوروبيين إلى الإعجاب والاهتمام بالآثار الرومانية باعتبارها تركة الإمبراطورية الرومانية العظمى، وجزء من الهوية الأوروبية.

الهوامش والإحالات:

---

[1]- ناصر الدين سعدوني: ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث_في تاريخ الجزائر_في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2000، ص: 63.

[2]- أبو العيد دودو: الجزائر_في مؤلفات الرحالة الألمان(1830، 1855)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص: 08.

[3]- طبيب وعالم نبات ألماني من أهالي مدينة نودشتادت أون أورلا NeustadtL orla الواقعة بمنطقة الساكس بألمانيا.

[4]- ابن عثمان المكناسي:الإكسير في فكاك الأسير، تح: محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965، ص:1.

[5]- محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ط3، 1983، ص:420

[6]- ماجدة حمود:صورة الآخر في التراث العربي، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 2010، ص10.

[7] -Simon jeune, littérature gènèral et littérature comparèe,essai d'orientation, lettre modernes, 1968,p49.

[8]- محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، ص:346.

[9]- يوسف بكر، خليل الشيخ: الأدب المقارن، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، القاهرة، ط1، 2008، ص210.

[10]- ينظر: سعيد بن سعيد العلوي: أوروبا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2012، ص:15.

[11]- هابنسترايت:رحلة إلى الجزائر، تونس، طرابلس، تر:ناصر الدين سعدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، دط، دت ، ص، 12، 13.

[12]- هابنسترايت، رحلة إلى الجزائر، تونس، طرابلس، ص29.

[13]- المحلة: لفظ يطلق على الجند المتنقل في الأرياف، يقابله النوبة التي تعني الجند المقيم بالأبراج والثكنات

[14]- غزالي عبد العالي: صورة الجزائر في مصادر الرحلة الغربية خلال العهد العثماني رحلة هابنسترايت أنموذجا، ص113.

[15]- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر الحديث، ج3، دار الثقافة، بيروت، 1980، ص518.

[16]- هابنسترايت: رحلة إلى الجزائر، تونس، طرابلس، ص: 21.

[17]- غزالي عبد العالي: صورة الجزائر في مصادر الرحلة الغربية خلال العهد العثماني رحلة هابنسترايت أنموذجا، مجلة الحوار المتوسطي، مجلد9، ع1، مارس 2018، ص: 112.

[18]- هابنسترايت، رحلة العالم الألماني هابنسترايت إلى الجزائر، ص25.

[19]- محمد أركون: نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، دار الساقي، بيروت، ط1، 2010، ص: 339.

[20]- هابنسترايت: رحلة إلى الجزائر، تونس، طرابلس، ص46.

[21]- المصدر نفسه، ص: 47.

[22]- المصدر نفسه، ص: 21.

[23]- المصدر نفسه، ص: 21.

[24]- المصدر السابق، ص: 58.

[25]- هابنسترايت: رحلة إلى الجزائر، تونس، طرابلس، ص: 32، 33..

[26]- هابنسترايت: رحلة إلى الجزائر، تونس، طرابلس، ص: 37.
[27]- مولود قاسم نايت بلقاسم: شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، ج2، دار الأمة، الجزائر، 2012، ص: 339.
[28]- هابنسترايت،:رحلة إلى الجزائر، تونس، طرابلس، ص: 35.
[29]- هابنسترايت: رحلة إلى الجزائر، تونس، طرابلس، ص: 35.
[30]- هابنسترايت:رحلة إلى الجزائر، تونس، طرابلس، ص: 60.
[31]- هابنسترايت: رحلة إلى الجزائر، تونس، طرابلس، ص:65.
[32]- هابنسترايت: رحلة إلى الجزائر، تونس، طرابلس، ص: 65.
[33]- محمد أركون،:نحو تاريخ مقارن للأديان،ص:325.